سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد 13 ، العدد 2- 2023 ، ص.ص:46-59

Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V:13, N°:2 – 2023, P.P :46-59

أزمة العقلانية الزائفة وأثرها على اغتراب الانسان والعمل عند ماركيوز.

The crisis of false rationality and its impact on human alienation and work according to Marcuse.

أيمن بوطرفة [*1]، إيمان عامر [2]

[(1)] جامعة وهران2 محمد بن احمد (الجزائر) (aymenboutarfa@hotmail.com)

[(2)] جامعة قالمة (الجزائر) (ameurimene5@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2023/01/24 ؛ تاريخ القبول : 2023/04/08 ؛ تاريخ النشر : 2023/05/20

الملخص

تطورات العلوم والتقانة وإن كان أحد أهم مكتسبات المجتمعات الصناعية المتقدمة، فإنه لا يخلو من سلبيات أيضا، يمتد أثيرها لذات الانسان وكل ما يحيط به من أنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية. وقد تنبه هربرت ماركيوز لها الأمر وأعتبر أن حضارة المجتمعات المتقدمة المعاصرة تقوم على مفهوم "العمل" وسلسلة الانتاج وما يتبعها من ثقافة استهلاكية تقود الى اغتراب الإنسان. لكن هذه الهيمنة على عكس سابقتها تتخفّى خلف قناع عقلانية زائفة، وتتمترس بمكتسبات التكنولوجيا والتقانة والآلة وما توفره من رفاهية وتسهيل للعمل. الذي حتى وإن بدى أقل قسوة وقسريّة من السابق فهو في النهاية يبقى "عملا مغتربا".

الكلمات المفتاحية: العمل المغترب، الاغتراب، العقلانية الزائفة، التقانة، ماركيوز.

Abstract

The developments of science and technologies, although it is one of the most important gains of advanced industrial societies, it is not without negatives as well, its impact extends to the human being and all the political, social, economic and cultural systems that surround him. Marcuse noticed this matter and considered that the civilization of contemporary advanced societies is based on the concept of "work" and the chain of production and the subsequent consumer culture that leads to human alienation. However, this hegemony, unlike its predecessor, is hidden behind a mask of false rationality, and is entrenched in the gains of technology, technology, and machinery, and the luxury and facilitation they provide. Which, even if it seems less harsh and coercive than before, is in the end an "alienated work

Keywords : Alienated Work, alienation, False rationality, technology, Marcuse.

[*] **الباحث المُرسل**

1. مقدمة

في زمن العولمة وفي ظل التطور الهائل الذي شهده العالم وشمل مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية للإنسان المعاصر، خاصة ذلك التطور التقني والعلمي وما تبعه من تطور وسائل الانتاج وطغيان المادة على الفكر وما صاحبها من ثورة تكنولوجية هائلة واعدة بتحقيق حلم الانسان المتمثل في التقدم والسعادة والرفاهية. فحدثت إثر هذا عديد التحولات في المجال الاجتماعي والاقتصادي كان من قوامها تغيرات جذرية في أنظمة سوق العمل بفعل تطور الآلة والتقانة وما تبعها من امكانية اراحة الإنسان أو حتى الاستغناء في سلسلة الانتاج. وكذا التحول من عقلانية إنسانية الى عقلانية أداتية زائفة قادت الى استلاب الانسان الحديث واغترابه في المجتمعات الصناعية التكنولوجية الحديثة، التي استطاعت بفعل تطور التكنولوجيا أن تعقلن لا عقلانيتها، فأضحى الإنسان فيها قابلا بوضعه، خانعا لنزعاته الاستهلاكية، فغدا هو ذاته بضاعة تخضع لتحولات السوق ومعايير المجتمع الاستهلاكي، التي جعلته يعاني من الاغتراب والتشيؤ وكثير من أمراض الحضارة الصناعية التكنولوجية.

على إثر هذه المستجدّات ظهر عديد من المفكرين الذين تصدّوا لهذا الموضوع وتناولوا بالتشخيص أزمة الانسان المعاصر محاولين رد الاعتبار ل"الإنسان"، فكان ابرزهم "هربرت ماركيوز" أحد اشهر رواد النظرية النقدية، وهو الذي شخص آثار "عقلانية" الحضارة الصناعية المتقدمة القائمة على "الوعي الزائف" و"تشيؤ الانسان" وتنميطه وتدجينه وحصره في "بعد واحد"، معرّجا على اغتراب الانسان المعاصر الذي صار حبيس "العقلانية الأداتية" أو "العقلانية الزائفة"، فصار غريبا عن ذاته الضائعة في متاهات التقنية والاستهلاك.

وعليه تنطلق هذه الدراسة من الاشكالية الموالية: كيف تأثر تطورات التقانة والتكنولوجيا على اغتراب الانسان في المجتمعات الصناعية التكنولوجية المتقدمة؟ وكيف تعقلن هذه المجتمعات "لا عقلانيتها"؟ وما هي معالم "العمل المغترب" فيها بحسب هربرت ماركيوز؟

2. الثورة العلمية في زمن العولمة

انفتحت البشرية في الحقبة الحديثة على تطور علمي فريد من نوعه بسبب تزايد وتيرة التقدم التقنوعلمي خاصة في عالم تسوده ثقافة العولمة و التطور في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والمعلوماتية وغيرها، و قد صار التقدم حلم الجميع وأصبح فيما بعد جزء لا يتجزأ من حياة الانسان وهاجسا يسير تفكيره، ويعد العلم المتغير الأشد تأثيرا على حياة الانسان الحديث منذ عهد الثورة الكوبرنيكية خاصة لما فتحه من قراءة تأويلية للطبيعة مغايرة للمعهود اللاهوتي وعمل على خلاص البشرية من آلامها وشقاءها. **(بوحناش، 2017، صفحة 247)** فقد أتاح هذا التقدم العلمي الكثير من الفرص الذهبية للإنسان الحديث، فقد ساعده العلم على تسهيل أمور حياته باختصار، من تعلم وتوفير وسائل الرفاهية والقضاء على التعاسة التي صاحبته طيلة سنوات لأسباب ما خاصة المرضية منها عبر التقنية و بالتالي أصبح القضاء على الأمراض المستعصية ممكنا وتحقيق حلم الانجاب سهلا وتخطي العاهات الخلقية بإكسير أنتجه العلم بتقاناته المتلاحقة والمتطورة وكذلك المتفاوتة في الدقة والصرامة، أي أنه وبطبيعة الحال "تسربت السلطة التحكمية للتقنية، حلا لمعضلة إعادة ترتيب الخلق، وتكييفه حسب مطالب الرغبة الإنسانية قد سار في درب استكمال مشروع التقدم، اثراء لفلسفته القاضية بضرورة تحصيل الوجود السعيد والخير للإنسان" **(بوحناش، 2017، صفحة 13)**، فالإنسان الحديث تحركه فكرة التقدم في التاريخ من خلال العلم التقدمي الذي تتزايد وتيرته في كل مرة الى جانب تحقيق الرفاهية وغيرها...

إضافة الى الرفاهية التقنية وتبعا لما أتاحه واقع العولمة من تطورات في الجوانب الأخرى خاصة الاقتصادي والسياسي وتطور سوق الشغل والعمل خاصة اثناء تسارع وتيرة العولمة وما صاحبها من تطور، خاصة حين تزايد تبادل السلع والخدمات المحلية والخارجية وتنوعت مجالات رؤوس الأموال ومجالات الربح ورأس المال إضافة الى الشركات متعددة الجنسيات وأصبح العالم قرية صغيرة تعج بالتبادل الاقتصادي و التواصل بين جميع الأفراد. لأن العولمة في الأساس هي زيادة درجة الارتباط المتبادل بين المجتمعات الإنسانية من خلال عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات، كما أنها نظام عالمي قائم على ثورة معلوماتية

قائمة على المعلومات والابداع التقني غير المحدود، دون الاعتبار للقيم والحضارات والثقافات والحدود الجغرافية. **(بكار، 2013، صفحة 11)** ويعد حلم العولمة هو صنع عالم بلا حدود عالم تدخل فيه البشرية مرحلة جديدة أهم صفاتها قيام اقتصاد عالمي بلا حدود قائم على الحرية الكاملة لانتقال السلع ورؤوس الأموال والخدمات والمعلومات والأفراد والأفكار دون قيود. **(بكار، 2013، صفحة 11)** اذن فالعولمة بامتيازاتها مكنت الانسان من التبادل الاقتصادي وصار المجتمع استهلاكيا بالدرجة الأولى، يستهلك السلع بكثرة ويتمحور اهتمامه في هذا المجال ناهيك عن التقدم التكنولوجي الذي أصبح محورا رئيسيا في حياة الفرد وأصبح حتمية تاريخية لابد منها، اذ يقال أن التكنولوجيا مجرد طريقة لإشباع حاجات الانسان وتتمثل في وسيلة الإنتاج والاستهلاك التي تدخل في ممارسة الانسان اليومية كما أصبحت هي في ذاتها طريقة في ممارسة عاداته ومختلف أنواع سلوكه والتعبير عن قيمه ونظرته الى الحياة والكون **(أمين، 2009، صفحة 50)**. ويضيف جان بودريار في مؤلفه روح الإرهاب الى أن العولمة هي "عولمة التقنيات والسوق والسياحة والاعلام، تبدو العولمة ذات اتجاه لامحيد عنه، في حين أن العالم في طريقه الى التلاشي على الأقل على النحو الذي تكون فيه من خلال نظام قيم على صعيد الحداثة الغربية لا نظير له في الثقافة الأخرى" **(بودريار، 2010، صفحة 71)**، فالعولمة هي الروح السامية للحضارة الغربية وبها بلغت أوج تطورها في الجانب التقنوعلمي وفي المقابل صار عالم القيم على حافة الانهيار وعلى وشك الأفول لأن الحضارة الغربية لم تعد تهتم بإنسانية الانسان وبقيمه بقدر ما تهمها منجزاتها المادية التي تكتسح العالم.

وبالتالي أصبح العالم يعيش مرحلة جديدة من التقدم التقنوعلمي ولقد تغير العالم بفعل التقنية وتكنولوجياتها المتطورة في الواقع العملي ضمن إطار العولمة و سار الانسان نحو تجسيد مشروع فلسفة التقدم من خلال سعيه الدؤوب نحو تجديد شراكته دوما بالمجتمع الصناعي المفرط في تقديس السلع الى درجة أصبح الانسان نفسه سلعة في سوق العمل.

3. اغتراب الانسان المعاصر من منظور ماركيوز

استطاع ماركيوز من خلال الإرث الماركسي أن يقدم لنا تحليل للمجتمع الصناعي المعاصر من خلال رؤية نقدية للمجتمع الصناعي المعاصر ولأنظمة هذا المجتمع الاستبدادية في مجملها لأنها تنمط سلوكيات الفرد وعاداته عبر التقنية التي صارت تسيطر على الانسان وتكرس لمنطق الهيمنة كما سلبت من الانسان انسانيته وإرادته وحريته التي منحته إياها الطبيعة وبالتالي صار يمشي وفقا لمنطق التقنية فقط ولا ينصب اهتمامه نحو حريته المسلوبة بل صار وسيلة ضمن المجتمع الاقتصادي وبالأخص الرأسمالي منه ومن هنا نشأت العقلانية الأداتية بعلاقاتها المعقدة والتي تعتبر أن "الطبيعة مادة استعمالية يتم توظيفها في خدمة أهداف الإنسان العملية وفي تحقيق مصالحه ومنافعه المادية" **(بومنير، 2010، صفحة 29)**، وبالتالي تحولت الطبيعة من وسيلة حامية للإنسان الى غاية لتحقيق منافعه الأداتية والبراغماتية وتم اخضاع كل شيء الى التجريب والتكميم والقياس لاسيما الانسان الى جانب الطبيعة بما تحتويه، كما دعت الى ذلك الفلسفة الوضعية، وكلما تنمو المعارف العلمية الحاملة للبعد الأداتي كلما وجد الانسان أن آفاق حريته وسعادته تتقلص ويفقد الاستقلالية الذاتية التي تميزه كشخص انساني كما يفقد كل مميزاته الفكرية كالقدرة على التخيل و يفقد كافة أبعاده الإنسانية والجمالية. **(بومنير، 2010، صفحة 30)** فالتجريب المفرط على الانسان يجعل منه أداة ويفقده كرامته وقداسته البشرية لأن القداسة تفقد جوهرها حينما توضع ضمن مخابر التطبيق والتجريب كذلك نفس الشيء بالنسبة للمجتمع الصناعي الذي يضع الانسان تحت وطأة السلع ويعتبره هو أيضا مجرد مستهلك أمام الاقتصاد ووسائل الإنتاج وبالتالي هنا يفقد حريته وارادته والأمر أكبر من ذلك بكثير فقد تحول الى مشكلة خاصة وأن كل الأمور تحت سلطة الدولة فهي التي يمكنها التطبيق. فقد استطاعت الدولة أن تتحول الى نظام شامل للقمع والقوة والسيطرة فعرضت الانسان لأشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن والقمع الواعي وغير الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة والمؤسسات الإدارية والبيروقراطية والاستهلاكية والإعلامية التي تشبه آلات هائلة تفرض على الفرد ضغوطها ومشاكلها. **(بومنير،**

2010، صفحة 30) ومن خلال هذا القهر الذي يعيشه الانسان المعاصر بفعل الآلة وتقاناتها أصبح يعاني التشيؤ من خلال العقل الأداتي الذي أصبح يكتسي حياته وتطاول لشخصيته، ويعتبر العقل الأداتي طريقة في التفكير ومنهج يتوحد حول الرؤية المادية للإنسان والطبيعة ،وبالتالي فان مصطلح الأداتية يفيد معنيين: أنه أسلوب لرؤية العالم وأسلوب لرؤية المعرفة النظرية من خلال اعتبار كل من العلم والعالم أداة لتحقيق مرادنا وغاياتنا. **(كريب، 1990، صفحة 280)** فالعالم أصبح أداة وحيز لتحقيق الأهداف المادية التي أرغب بها والعلم وسيلة تحقق لي ذلك فالعلم على حد تعبير هايدغر لايفكر في ذاته بقدر ما تهمه منجزاته المادية كما أنه فاقد للماهية و تحركه ماهية غير علمية، كما يضيف ماكس فيبر في ذات السياق أن العلم حرفة كالسياسة يسلعد في تحقيق أغراض وأهداف وميولات أي أنه له بعد خفي وماخفي أعظم مرتبط بالإيديولوجيات وفي نفس الفكرة يضيف ليفونتين في كتابه الأيديولوجيا عندما تصبح أيديولوجيا أن العلم مؤسسة تشرعن الواقع بالرغم من ادعاءه الموضوعية المطلقة الا أنه جهة بعيدة عن التعالي بالمفهوم الكانطي بل وتتأثر بالدرجة الأولى بالسياق الاجتماعي والسياسي وتخدم الأهواء والغايات. وبالتالي فان "العقل الأداتي يفصل الواقعة عن القيمة اذ أن اهتمامه ينصب عن اكتشاف كيف تصنع الأشياء وليس على ما يجب صنعه" **(كريب، 1990، صفحة 280)**، فهم يصنعون الأشياء ولا يكترثون الى نتائجها المهم هو أنهم يصنعون وتتواصل العملية في انتاج العديد من المنتجات والانسان يستهلك دون أن يعي ما يدور حوله.

ويتفق ماركيوز مع لوكاش في رؤية المستوى الاقتصادي للمجتمع الرأسمالي الذي صار منظم بطريقة تجعل العلاقات بين البشر كأنها علاقات بين أشياء وأصبحت النظرة مادية فقط. **(كريب، 1990، صفحة 280)**، وبالتالي أصبح الانسان ينظر اليه كالشيء وكالسلع مجرد من كل بعد روحي وانساني لأن العقل الأداتي نمط فكره وحريته واختزاله في شيء مادي فقط.

وتتمثل الأطروحة الأساسية عند هربرت ماركيوز في تشخيص باثولوجيا المجتمع الصناعي القاهر والوصول أخيرا الى فكرة اغتراب الانسان المعاصر المتأزم، الذي أصبح فاقدا لأبعاده ولم يعد يتقوّم إلا ببعد واحد وهو البعد الاستهلاكي لأن العقلانية أصبحت تفرز القمع وتسحق الانسان

كليا وتحرمه من حريته واستقلاله الذاتي وتحاول إقناعه بالحرية المزيفة التي تعمل على قهره وتهتم بالبعد الاستهلاكي فقط ولا تنظر للإنسان بوصفه انسانا. **(بومنير، 2010، صفحة 31)** فقد أصبح الفرد يعيش قهرا من نوع جديد وهو القهر التقني والتكنولوجي الذي سلب منه كافة أبعاده وجعله متقوقعا في بعد واحد وهو ما ترصده ماركيوز في مؤلفه الانسان ذو البعد الواحد الذي تناول فيه فصولا عن تحول العقلانية الى عقلانية لا معقلنة اذ يقول "ان هذا المجتمع في مجموعه لاعقلاني فإنتاجيته تقضي على التطور الحر للحاجات والملكات الإنسانية" **(ماركوز، 1988، صفحة 26)**، فقد كبل المجتمع الاستهلاكي الرادة الحرة الخيرة للإنسان باعتباره انسانا عاقلا حرا له ميولاته العاطفية ومشاعره وكذلك جوانب متعددة تجعل منه انسانا له ابعاد متعددة وبالتالي أصبح يعاني الاغتراب في نطاقه وفي مجتمعه وأصبح يحس نفسه بعيدا عن ذاته بل وغريبا عن نفسه ومجرد مستهلك للمنتجات الاقتصادية ضمن مختلف أسواق العمل، كما يمكن القول أنه صنع اغترابه بنفسه من خلال افراطه في تقديس التقانة واللهث وراء انجازاتها ووجب عليه أن يبحث عن حل بنفسه.

اذن فالإنسان الحديث أصبح منفصلا عن الطبيعة والمجتمع وحتى عن نفسه ولم يعد قادرا على إقامة الجسور التي تصل بينه وبين الآخر المختلف وبالتالي أصبح عاجزا عن تحقيق ذاته ووجوده بأصالة وبالتالي أصبح يطلق عليه انسان منفصل عن الآخر، انسان مغترب.. **(رجب، 1988، صفحة 6)**، فهذا الانسان المغترب يعيش باثولوجيا اجتماعية ويعاني من أمراض الذات التي قمعتها المجتمعات الصناعية والتي جعلت من الناس عبيدا لخدمة مصالحها.

يرى ماركيوز "أنه كلما أصبحت إدارة المجتمع الاضطهادي عقلانية، منتجة تقنية وشاملة تعذر على الأفراد أكثر فأكثر تصور الوسائل الكفيلة بتحطيم، اغلال عبوديتهم وبوصولهم الى حريتهم ويقينا، ان محاولة فرض العقل على المجتمع بأسره لهي فكرة غريبة وفاضحة" **(ماركوز، 1988، الصفحات 42-43)**، فأصبح العقل خادما للمصالح الرأسمالية والاشتراكية وموجه لخدمة المجتمع الاستهلاكي وفي كل مرة يزيد في مقدار الاضهاد وبالتالي يصعب للفرد التحكم في ارادته والتعبير عن حريته التي غيبتها الأنظمة القامعة للإنسان. ثم ان دينامية التقدم التقني قد تلبست على الدوام محتوى سياسيا وقد أصبح لوغوس التقنية لغوسا للعبودية المستديمة التي كرست للتبعية

التكنولوجية وجعلتها عقبة في وجه التحرر عن طريق تحويل البشر الى أدوات **(ماركوز، 1988، صفحة 191)**، والغرض من التقنية أصبح غرضا يعمل على تحطيم الذوات البشرية وليس لخدمتهم وتسهيل الحياة عليهم كما تزعم الأنظمة التي تزيف لهم الوقائع المادية، ثم ان المجتمع الصناعي المتقدم لم يزيف حاجات الانسان المادية فحسب بل زيف أيضا حاجاته الفكرية، فكره بالذات ولأن الفكر عكس مجتمع السيطرة لأنه يتمتع بالقوى النقدية التي لا ترغب بها مجتمعات السيطرة **(ماركوز، 1988، صفحة 13)**، هذه المجتمعات التي ترغب في استعباد الجميع والسيطرة عليهم لخدمة مصالحها، ومن جانب آخر يرى ماركيوز ان هذا الاستعباد قد ولد اغترابا نمطيا في شتى المجالات فلم يسلم أي مجال من مجالات حياة الانسان من باثولوجيا الاغتراب فالثقافة أصبحت تعاني الاستهلاك المفرط والتنميط وبالتالي أصبحت مجرد سلع واغتربت عن جوهرها الأصلي كذلك بالنسبة للفن فلم يعد الفن ذلك التعبير الذي يمثل الانسان بل اصبح مجرد عملية تجارية قائمة على البيع والشراء وبالتالي فلا بد من إعادة النظر في الثقافة الاستهلاكية التي عملت على تشيؤ الانسان ومن ثمة اغترابه وقد شخص ماركيوز هذه الازمة ووضع استراتيجيات وآفاق للخروج منه لأنه لابد من سبل للخلاص بإنسانية الإنسان، من قبيل إعادة صياغة التكنولوجيا صياغة عقلانية وكذلك الهروب نحو الفن والخيال اللذان يمكنان من معرفة الذات وتحقيق الوعي الذي استهلكته المجتمعات الصناعية.

4. العقلانية الزائفة للمجتمعات الصناعية التكنولوجية والعمل المغترب

المصادر الفلسفية الرئيسية التي يعتمد عليها هربرت ماركيوز في بلورة أفكاره وتصوراته حول العمل تتمثل في نظريتين: الأولى هي النظرية النقدية الكبرى "الماركسية" أو الجدلية المادية التاريخية، وهي نظرية تهتم بشكل أساسي بتسليط الضوء على أهمية علاقات الانتاج و"العمل" والأنظمة الاقتصادية في سيرورة التاريخ وتطور المجتمعات، وتأثيرها على البنى السلطوية والطبقات الاجتماعية والحرية والمساواة، وما تنتجه من ظواهر "الإغتراب" و"الاستلاب" و"القمع" وغيرها. أما الثانية فهي نظرية التحليل النفسي "la psychanalyse" أو الفرويدية. حيث سلط فرويد الضوء

على تأثير الحضارة على قمع الحرية والغرائز الانسانية، وما يخلق هذا الأمر من صراع نفسي داخل الإنسان، نتيجة صراع بين رغباته وملزمات الحياة الجمعية في أطار الحضارة الحديثة. ففي كتاب "قلق في الحضارة" يتحدث "سيغموند فرويد" عن الصراع بين نزعتين داخل الانسان غريزة الحب أو "الإيروس" وغريزة الموت أو التدمير **(فرويد، 1996، صفحة 86)**، وهذا ما يستلهمه منه ماركيوز لصياغة أحد أشهر نظرياته عن تقابل وتضاد "الأيروس" مع "الحضارة القمعية" في كتاب تحت عنوان "الأيروس و الحضارة" أو كما هو مترجم في المكتبة العربية ب"الحب و الحضارة". حيث يرى فيه أن "الحضارة بنيت على قمع الدوافع بسبب الحاجة إلى العمل الناتج عن الندرة. وخلال هذا التطور، حلت علاقات الهيمنة محل الآلية الطبيعية للصراع من أجل البقاء" **(Giami, 2020, p. 17)**.

إذا فمن خلال هاذيين النظريتين أو المنهجين الكبريين يحاول ماركيوز بلورة أفكاره لتحليل العلاقات الانسانية والاجتماعية والسلطوية في المجتمعات الصناعية المعاصرة، حيث يعرج في هذا الصدد على مجال "العمل" محاولا الكشف عن المسكوت عنه الذي يحاول العقل الحداثي اخفاءه وراء أقنعة التقانة والتطور التكنولوجي ومجتمع الرفاهية، كاشفا عن أشكال من الاستلاب والاغتراب والقمع التي يعانيها الانسان المعاصر في ضل انخداعه ب"عقلانية زائفة"، تعمد على استغلال مختلف مكتسبات الحضارة الحديثة والتقدم التكنولوجي لعقلنة لا عقلانيتها.

هنا يطرح السؤال: ما المقصود بالعقلانية الزائفة للمجتمعات التكنولوجيا والصناعة المتقدمة؟ وكيف تعقلن تلك المجتمعات لا عقلانيتها؟

هذه العقلانية هي "قبل كل شيء قدرة هذا المجتمع بفضل التطور التقني على استباق كل مطالبة بالتغيير الاجتماعي، وعلى تحقيق هذا التغير تلقائيا. ومن زاوية الانجازات التي حققها المجتمع الصناعي المتقدم تبدو النظرية النقدية مطالبة بتجاوز هذا المجتمع هي اللاعقلانية وليس هو، إذ هل من المعقول في شيء المطالبة بتغيير مجتمع يثبت يوميا قدرته على التنمية وتوفير حياة الرغد والرفاه لأعضائه؟" **(ماركوز، 1988، صفحة 11)**. بعبارة اخرى فهي عقلانية الأمر الواقع، حتى لو لم تكن هي نفسها "عقلانية".

هذا ما يعني أن "مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة وما تحقق له هذه الطاقة من هيمنة على الفرد تتجاوز من بعيد كل أشكال السيطرة التي مارسها المجتمع في الماضي على أفراده. ولقد كانت السيطرة على مر العصور شكلا لاعقلانيا من أشكال العلاقات الانسانية. وبسبب طابعها اللاعقلاني هذا على وجه التحديد، كان في وسع الانسان دوما أن يعقلها ويفضحها ويطالب بوضع حد لها. بيد أن السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي تتلبس طابعا عقلانيا يجرد سلفا كل احتجاج وكل معارضة من سلاحها" **(ماركوز، 1988، صفحة 11)**.

اذا تصبح هنا التكنولوجيا أو التقانة أحد اهم وسائل القمع أو السيطرة الناعمة التي تمارسها المجتمعات الصناعية التكنولوجية على الانسان، وبها تعقلن لا عقلانيتها، فتجعل الانسان راضيا باغترابه واستلابه عن ذاته، قابلا للتخلي عن حرية في سبيل غايات مصطنعة نجحت الأيديولوجيا الناعمة في اقناعه بأنها هي غاية ذاته.

إن التقنية والتكنولوجيا لها ايجابياتها من حيث تسهيل حياة العامل من خلال تطور تكنولوجيا الآلات ووسائل العمل. ف"الآلة نفسها تلعب دورا سياسيا بارزا في المجتمع التكنولوجي. فمكننة العمل وتأليهه أبطلا مفعول الرفض والنفي الذي كانت تمثله الطبقة العاملة الكادحة، ودفعا بهذه الطبقة الى الاندماج بالنظام القائم فصار مطلبها الأول المساهمة في تسيير المشاريع لا تغيير النظام الذي يوفر لها نسبيا رغد العيش ورفاهه" **(ماركوز، 1988، صفحة 13)**.

ومع ذلك ومع ظاهر الايجابيات التي تتمظهر بيها تطور التقنيات والتكنولوجيات في المجتمعات المعاصرة إلا أنه "من الأسباب الاخرى لتقييد الحرية في المجتمع الصناعي هو أن التقنية الحديثة عبارة عن نظام موحد تعتمد فيه جميع الأجزاء على بعضها البعض. لا يمكنك إزالة أجزاء التقنية "السيئة" والاحتفاظ فقط بالأجزاء "الجيدة" **(كازينسكي، 2019، صفحة 81)**.

وهذا ما انتبه اليه جيدا هربرت ماركيوز من التنديد بأخطار التقنية وتأثيرها في اغتراب الإنسان، لكنه مع ذلك كان واعيا بمدى تغلغل التقنية وثقافة الاستهلاك في المجتمعات المعاصرة، وارتباط الناس ووعيهم ومخيالهم الجمعي بها. وهو ما جعل فلسفة ماركيوز فلسفة متشائمة، حير

ينظر الى أن مستقبل الثورة والتحرر الانساني مسدود أمام انتصار العقلانية الزائفة للمجتمعات الصناعية التكنولوجية المتقدمة.

بالنسبة لمفهوم العمل، فهو بشكله المتعارف عليه يتلقاه ماركيوز بشكل نقدي جذري انطلاقا من رؤية سلبية عنه، فهو يربطه مباشره بالاغتراب. حيث "يظهر العمل كنشاط لا يمكن أن يُفرض على البشرية إلا بقمع الدوافع والرغبات "الأيروس" " **(Emmanuel, 2008, p. 64)** . ذلك أن الحضارة التي تتواجد فيها المجتمعات الصناعية التكنولوجية المتقدمة جوهرها هو "العمل" وما يتبعه من دوره الاستهلاك. وهذا العمل أو منظومة العلاقات الانتاجية والاجتماعية الناتجة عنه هي بالذات ما يخلق "الإغتراب"، لأن هذا العمل حسب ماركيوز يتم على عكس رغبات الانسان "الأيروس"، فيحس الانسان بأنه مجبر على ذلك العمل كوسيلة تقوده الى ضمانة مكانة اجتماعية وتأمين عيشه. وحتى ان لم يعي الانسان المعاصر بقسرية العمل هذه، فذلك لأن وعيه تم تزييفه بفعل العقلانية الزائفة التي تتكرّس بفعل تطور التقانة في المجتمعات الصناعية التكنولوجية. فيصبح الانسان محصورا في بعده الاقتصادي"homo economicus" ، وبالتالي يَعرف ذاته ويُعرّفها من خلال طبيعة النشاط أو العمل الذي يقوم به. كما أن رغباته وحريته تتحدّد من خلال ما يمكن أن يحصل عليه ويستهلكه من نتائج العمل وما توفره سوق الانتاج من سلع وتكنولوجيا. بالتالي يصبح جوهر الانسان متعلقا هنا بمكانته في سلسلة الإنتاج، وهذا ما يقود الى استلاب الانسان عن ذاته، أو ظاهرة ما يعرف ب"الإغتراب" التي يجسدها أيما تجسيد "العمل المغترب"

تُشرّع المجتمعات الصناعية التكنولوجية المتقدمة عقلانيتها من خلال مستويين: من أعلى ومن أسفل الهرم الاجتماعي. المستوى السفلي يتجسد من خلال سلسلة الانتاج والعمل، والمستوى الثاني من أعلى حيث تحدده مختلف العلاقات الاجتماعية والأيديولوجية التي تؤطر المجتمع الصناعي التكنولوجي.

لكن ما يلاحظ على طبيعة الايديولوجيا في المجتمعات الصناعية التكنولوجية المتقدمة أنها لا تفرض نفسها بشكل قسري من أعلى السلطات الى أسفل الهرم الاجتماعي، بل انها تفرض نفسها بآليات ناعمة وخفية تجسدها حلقة الانتاج وثقافة الاستهلاك التي تشمل جميع أعضاء المجتمع.

وهو ما يخلق نوعا من "عقلانية" الأمر الواقع، هذه الأخيرة التي يرفضها هربرت ماركيوز ويعتبرها عقلانية زائفة، تعمل على تشريع اغتراب واستلاب الانسان عن ذاته.

من وسائل اخفاء آليات القمع والاغتراب التي تلجئ الى الايديولوجيا في المجتمعات الصناعية المتقدمة هي التكنولوجيا، فمنتجات التقانة تتيح للأجهزة السياسية تحكما أكبر في الخطاب الاعلامي والرأي العام، كما تتيح لها أيضا نشر الثقافة الاستهلاكية وأيديولوجيا الرفاهية.

يقول ماركيوز في هذا السياق:" حتى وان كان هذا الواقع قد استوعب الأيديولوجيا، فذلك لا يعني أنه لم يعد هناك أيديولوجية. بمعنى آخر، فعلى العكس ثقافة التقدم الصناعي هي أكثر أيديولوجية مما سبقها"**(Clavet, 1986, p. 215)** .

ف"التطور الفعلي الذي حدث في المجتمع الرأسمالي، منذ مطلع القرن العشرين بوجه خاص، أدى إلى إدخال تغيير جذري على الطبقة العاملة وموقفها من النظام الرأسمالي القائم. وكان من أهم أسباب هذا التغيير عاملان رئيسيان طرآ على النظام الرأسمالي خلال هذه الفترة: أولهما قدرة هذا النظام على تحقيق نوع من الاستقرار يجنبه الأزمات والتقلبات المفاجئة ... وأما العامل الثاني فهو تأثير التكنولوجيا الحديثة، التي أدخلت على العمليات الإنتاجية تحسينات، في الكم والكيف، لم يكن من الممكن التنبؤ بها، وانسحب تأثير هذه التحسينات على العمل اليومي الذي يمارسه العمال، مما أدى إلى الإقلال باستمرار من مجهودهم الجسمي، وإلى إزالة الفوارق بالتدريج بين العمل اليدوي والعمل المكتبي ... ففي المصنع الذي تدار آلاته بطريقة التسيير الذاتي لا يعود العامل هو ذلك الانسان الكادح الذي تحدث عنه ماركس، ولا يعود الألم الجسمي والشقاء جزءًا لا يتجزأ من حياته" **(زكريا، 2020، صفحة 34)**.

ومع ذلك فإن هذا العمل هو "عمل مغترب"، لأنه بحسب ماركيوز "فقط العمل المغترب يمكن تنظيمه وإدارته من خلال الروتين العقلاني"**(Marcuse, 1963, p. 80)** . وهذا الروتين العقلاني هو نفسه مظهر تجلي العقلانية الزائفة للمجتمعات الصناعية التكنولوجية المتقدمة.

5. خاتمة:

بالرغم من أن تقدم التقنية والتكنولوجيا له ايجابيات كثيرة على حياة الانسان المعاصر، من حيث تسهيل حياته وتطوير مستوى الرفاهية، وما يتيحه كذلك من امكانية لتنظيم مختلف الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية، إلا أن هذا التقدم الذي تشهده المجتمعات المعاصرة ليس بلا ثمن، بل إن ثمنه باهض جدا، وهذا بالضبط ما انتبه اليه هربرت ماركيوز.

فمن خلال الاستناد الى مكتسبات النظرية النقدية الكبرى ومقاربة التحليل النفسي، والتصرف في هذه المكتسبات بطريقة مبتكرة حاول ماركيز تحليل الواقع التاريخي والاجتماعي لإنسان المجتمعات الصناعية التكنولوجية المتقدمة ، مبرزا المسكوت عنه الذي يخفي أشكالا من القمع والاغتراب والاستلاب خلف واجهة المجتمعات المتقدمة التي تعتمد على التقانة وعلى ايديولوجيا تتدعي أنها تدعم سرديات التحرر كواجهة تعقلن بها لا عقلانيتها.

ان جوهر حضارة المجتمعات الصناعية المتقدمة هو "العمل"، ومن خلال مختلف النواتج والعلاقات الاجتماعية التي تنتج من هذا "العمل" تتحدد هوية إنسان هذه المجتمعات، لكن هذا "العمل" هو عمل مغترب ، لانه يستلب الانسان عن ذاته، ويجعله لعبة في متاهة المجتمعات الاستهلاكية. ومن هنا تتحدد رؤية ماركيوز لثقافة العمل في هذه المجتمعات على أنها ثقافة تؤدي الى اغتراب الانسان، لكن هذه المرة يبدو الانسان راضيا عن ذلك الاغتراب، لأن تطور التقانة والتكنولوجيا له وجهان لا ينفصلان، ايجابي يساعد يتجسد في توفير الرفاهية، وسلبي يعمل على تدجين "الإنسان" وعقلنة "لاعقلانية" أشكال من القمع الأيديولوجي لحضارة المجتمعات الصناعية التكنولوجية المتقدمة.

6.قائمة المراجع:

- **<u>المؤلفات</u>:**

- ايان كريب، *النظرية الاجتماعية*، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1990). (ترجمة محمد حسين غلوم).

- تيد كازينسكي، *المجتمع الصناعي ومستقبله*، (جدة: دار تكوين، 2019). (ترجمة رقية الكمالي).
- جان بودريار، *روح الإرهاب*، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2010). (ترجمة عمر زكي بدر الدين).
- جلال أمين، *العولمة*، (مصر: دار الشروق، 2009).
- سيغموند فرويد، *قلق في الحضارة*، (لبنان: دار الطليعة، 1996). (ترجمة جورج طرابيشي)
- عبد الكريم بكار، *العولمة طبيعتها: وسائلها تحدياتها التعامل معها*، (الأردن: دار الأعلام،2013).
- فؤاد زكريا، *هربرت ماركيوز*، (مصر: هنداوي، 2020).
- كمال بومنير، *النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: من ماكس هوركايمر الى أكسل هونيث*، (الجزائر: منشورات الاختلاف، 2010).
- محمود رجب، *الاغتراب سيرة مصطلح*، (القاهرة: دار المعارف، 1988).
- نورة بوحناش، *البيواتيقا والفلسفة من الانسان الفائق الى الانسان المتزكي*، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والابداع، 2017).
- هربرت ماركوز، *الانسان ذو البعد الواحد*، (بيروت: دار الآداب بيروت، 1988). (ترجمة جورج طرابيشي).
- Marcuse, H, *Éros et Civilisation: Contribution à Freud*, (paris: ARGUMENTS LES ÉDITIONS DE MINUIT, 1963). (j.-G. Nény, & B. Fraenkel, Trads.)

- **<u>المقالات</u>:**

- Clavet, J.-C. Le concept de liberté chez Herbert Marcuse. *Revue Philosophiques*, Volume13, n°2, 1986.
- Emmanuel, R. Psychanalyse et conception critique du travail : trois approches francfortoises (Marcuse, Habermas et Honneth). *Travailler* ,Volume 20, n°2, 2008

- **<u>المداخلات</u>:**

- Giami, A, Eros et civilisation de Herbert Marcuse. *séminaire de CERSES*, 2020, paris: (https://www.hal.inserm.fr/inserm-00519284).